رسالة «تاج الدين»

«أسندت الظهر إلي نخلي.. وتأملت الثمر الداني.. ما أبهاه.. ما أروعه.. ما أشهاه.. ومددتُ يدي.. قالت أمي لا يا كبدي.. أوهنتَ علي حالك جَلدي.. لا تفزع في نومك.. ولدي.. وصحوت من النوم حزيناً وتذكرت الحلم الوردي.. وأسفتُ علي أمسي وغدي.. وبكيتُ.. بكيتُ.. أفارقنا أرض الأجداد إلي الأبدِ!»

جلست علي شط البر الشرقي لطيبة، فارضاً علي نفسي عزله، أتأمل ذلك المشهد الخلاب، أملئ رئتي بعبق تاريخ أجدادي الفراعين، فأي فخر يحمله حفيد لأجداده الأولين، فخر ملؤه الإباء والشرفِ، لكنه لم يخفي شجنٌ علي ما آل إليه حاله الأليم، بين الفينة والأخرى أرمي النهر بحجرً، علني أيقظه من سبات نوم عميق، أخرجني من عزلتي ذاك الصوت، أبيات شعر لم أفهم مغزاها، لكنها تسللت إلي فؤادي الحزين.

كل ما يحيط بي لا يمكن أن يخفي أحدً، فقد اخترت عزله سهلية يسير فيها النهر بنعومة منذ آلاف السنين، يمكن لعيني أن تري أي مُقتحمٌ لمجلسي دون استئذان، أستطيع أن أري القادم من أفق يبعد مئات الأمتار، لم يكن هناك موطئ لجبل أو لشجر يمكن أن يخفي عن العين آي شيء، وقفت أتلفت يميناً ويساراً

باحثًا عن الشاعر المجهول، لم أجد شيئًا، فظننت أن مسًا أصاب عقلي، أو أن تلك الأبيات جاءت من أعماق ضميري الشجنِ علي حال أمتي، فعدتُ أتأمل السكون.

التفت إلي النهر أسأله، يا نيلُ هل تخاطبني ألماً، فتلقي إلي الشعرَ يواسيني، أم أن الحجر يؤلمكَ، فترمي آبيات تعاتبني، فجاءني صوت ذاك الشيخ ليُجيبني، «في غفلتنا ضاع تراثُ.. أذهل كل العالم حُقبا.. واضيعتنا.. يا حسرتنا.. كان تراثًا يعدل ذهبا»، أنت ضميري إذًا يا هذا، كمختلٍ فقد عقله أجبتُه هكذا، فأطلقت العنان لضحكاتٍ مرتبكة، وأخذتُ أردد ماذا عساي أن أفعل، فقد زرع الأباء بذرة في الأرض البورِ، وهاأنذا أحصد نبتة الانكسار والخذلانُ، فعاد الصوت يزجرني صائحًا، سل نفسك عن التاريخ والماضي الذي كان صرحاً شامخًا ثم هوي.

تملكني فجأة شعور جارف برغبة الاقتراب من النهر، فقد أدركت أخيرًا أن «حابي» هو شاعري المجهول، فدنوت من الشط ببطء، ترتجف فرائصي، ترتعد أوصالي، لم يعد هناك صوت يعلو فوق صوت دقات القلب، واصلت الاقتراب حتي لامست مياهه، ملِت بجسدي حتي كادت رأسي أن تلامسه، أطرقت أذني فلم تسمع إلا صوت موجاته، حملقت بعيني أشجعه علي مواصله حديثه، لم أجد إلا صمتًا، سكنت برهة أنتظر ولا حياة لمن تنادي، فلا شيء في النهر تغير.

"احذر يا بُني.. فالنهر غدار.. زينة شباب المحروسة راحوا بحضنه".. اختل توازني فجأة وكدت أسقط في مياه النهر، فمن خلف ظهري انطلق صوت ذاك الشاعر صارخاً، صرخة كفيلة بإرعابي، وددتُ أن ألقي نفسي بحضن النهر هربا، تمسكي بالحياة جعلني أبحث عن شيء أتشبث به، بطرف عيني لمحت يداً سوداء تمتد إلي، دون وعي مددتُ يدي لتلامس أناملي أطراف أصابعه، لم أعبأ بفكرة موتي غرقًا، مثلما ارتعدت الأن من ذاك الذي أُلامسه، يدٍ ظننتُ أنها تنبثق من عدم، ولكنها حرمت ذلك الغدار من احتضان جسدي.

ألقيت بجسدي لاهثًا علي الأرضِ، لم تفارق عيني مياه النهر، لم ألتفت لصاحب اليد السوداء، لم يُسعفني فضولي لمعرفة شخصه، رهبة المشهد أنستني تحيته، أو حتي رد جميل صنيعه معي، فما زالت تسيطر علي عقلي هواجسي، فمن صاحب تلك اليد السوداء؟، من أين جاء؟، وكيف لم أراه؟، هل انشقت الأرض به لينقذني؟، أم لفظه العدم في طريقي ليؤانسني؟، لكزه خفيفة علي كتفي الأيمن جعلتني أفيق من تساؤلاتي، توقف كل شيء من حولي، لم يعد النيل يجري، حتي الهواء ما عاد يتحرك، وكأنه مشهداً سينمائياً اضطر مخرجه لعرضه بالصور البطيئة، التفت إلي ذلك الشاعر المجهول، ورويداً رويداً بدت تفاصيله.

وكما بدأ الرعب والخوف فجأة، دبت السكينة إلي نفسي فجأة، فابتسامة طيبة استقبلني صاحب اليد السوداء، عجوز في منتصف العقد السابع من عمره، طويل القامة، ضخم الجثة، أسمر البشرة كأغلب أهل الأقصر، واسع الفم يعلوه شارب أبيض طويل الأطراف، له صدغان منخفضان، وعينان ضيقتان غائرتان حادتان كعيني نسر كاسر، كان يمثل بوجهه أمام المرآة كل معاني الطيبة، فحظي ذاك الوجه نصيبًا من اسم المدينة التي تربي وعاش فيها "طيبة".

ظللت هكذا أتفرس ملامح ذلك الشاعر برهة، لم أنطق ببنت شفة، فقد سكتُ عن الكلام المباح، تناسيتُ كل شيء تقريبا، تناسيتُ ما انتابني من فزع، أبياته التي أثرتني، ظهوره المفاجئ في عزلتي، فقد أثرتني طيبه هذا العجوز الجالس القرفصاء، يمسك عصا يتوكأ عليها، وله فيها مآرب أخري، للمرة الثانية يلكز كتفي قائلاً بصوت حمل طيبة الأرض وما عليها: "مالك يا ولدي ساكت ليه.. روحت علي فين"، وكأن الحياة عادت من جديد، عادت إلي ذاكرتي، فاعتدلت نافضًا رأسي إياها مما علق من غبار صدمة، وقلت بصوت حاولت أن يخرج هادئًا: "لازلت هنا ولكن عقلي هناك مع أبياتك الغامضة".

"هـذه أبياتـي.. كتبتهـا منـذ أكثـر مـن مئـة عـام.. وسـألقن أحفـادي حروفهـا لمئـات الأجيـال".. صدقًـا لا أعلـم مـن أيـن خرجـت تلـك الكلمـات، فرغـم إننـي رأيـت هـذا العجـوز يتحـدث، إلا إننـي أكاد أُقسـم أن هـذا الصـوت لـم يخـرج مـن فـم الرجـل، صوتـاً عميقـاً قادمـاً مـن جـوف الأرض، حـاداً غليظـاً كأنـه يخـرج مـن باطـن كهـف صخـري، وفي نفـس الوقـت شـجياً مغلفـاً بالحـزن يطلـق العنـان للدموع والتنهـدات، تعجبـت ممـا قالـه الرجـل، فكيـف لـه بتلـك الأبيـات منـذ أكثـر مـن مئـة عـام، وهـو عجـوز لـم يتجـاوز السـبعون ربيعـا، اكتبهـا قبـل أن يولـد بثلاثـون عـام.

ابتسـامة الشـاعر الأسـمر الواسـعة أجابـت سـؤالي دون أن يتفـوه بحـرف، جمـال تـاج الديـن، ذاك أسـمه، ولـد في قريـة دهميـت قبـل هجـرة بنـي عشـيرته بنحـو ثلاثـة عشـرة عامـاً، وطيلـة سـنوات عمـره السـتين، اكتسـب صفـات أهـل النوبـة العظـام، فـكان الأطـول قامـة والأكثـر وسـامة، هكـذا هيـرودوت فيهـم قـال، حفـرت قسـوة الصحـراء القاسـية بجسـده صـلادة جعلتـه أشـبه بجنـود الأسـاطير، فأشـارت بيـدي إلـي مـا حولـي قائـلاً، تلـك أرض وهنـاك أرض، فلمـاذا هـذا الحنـين.

"دوارين أوق وسّسـن متِـي لـن".. لـم أفهـم مـا قالـه الشـاعر، فقـد أدركـت أن سـؤالي هـذا أغضبـه، صرامـة وجهـه، حـدة صوتـه،

أنبأني بذلك، فحينما انعقد حاجبي مستفسراً، أطلق ضحكة قصيرة قائلاً، "أنها وصية الأجداد يا بني"، هنا فهمت لماذا أشار إلي رفات أجداده أسفل النهر، فالتفت إلي حابي أعاتبه، أليست كل مصر أوطاني، أجابني بصوت هادر، "داوّرين سيواد"، لم يكن صوت الشاعر، بل صوت حابي، ذلك النهر الذي تلاطمت أمواجه وكأنه بحر غاضب، اتسعت حدقتا عيني رعباً، تنهيدة حارة جعلتني ألتفت إلي الشاعر الأسمر، فإذا به مطأطئ الرأس قائلاً بصوته المنكسر، "ذاك جدي تاج الدين يا بُني.. مات حسرةٌ علي أرضٍ تركها في الهجرة الأولي منذ مئة وعشرة عامٍ مضت".

ذات صباح انتفض "تاج الدين" من نومه فزعاً، لم يكن قد تجاوز العامين ليفهم، اقتحم أبيه مخدعه صارخاً، سنترك النوبة يا صغيري، سيبنوا هناك سداً، قالوا أنه سيروض حابي ويجعله مُطيعاً، لم يدرك الصغير معني الحديث، دمعة حزينة علي وجنتي أبيه أفهمته أنه مُقبل علي شيء أليم، سار ركب أبيه مغادراً داراً ولد بها، وعلي سطح المركب الراحلة، أشار الأب إلي النوبة قائلاً للصغير: "نوبة أركوني قُوريرا.. مسرنا دورو.. أسّى أوينقون دورو.. فاويدُ إركي أونّا".

مازال صغيراً "تاج الدين"، لكنه فهم الرسالة، حفظها عن ظهر قلب من أبية، كان والده يدرك ذلك، لذا أعادها أكثر من

مـرة، حتـي اختفـت النوبـة في الأفـق كلمـا أبتعـد القـارب، اختفـت النوبـة، وظلـت رسـالة الأب تتـردد في قلـب وعقـل "تـاج الديـن" بلغـة أهـل عشـيرته الأولـين، "النوبـة أرضنـا الطيبـة.. تركناهـا عشـان خاطـر مصـر.. عشـان خاطـر أحفادنـا.. ولكننـا سـنعود إليهـا.. سـنعود إليهـا".

شـب "تـاج الديـن" وأصبـح رجـلاً، لـم ينـس رسـالة أبيـه يومـاً، كان الحُلـم يـراوده، أن يحقـق وصيـة أبيـه، أن يعـود إلـي النوبـة، لقـن طفلـه وصيـه الأرض، وقـد أسـماه صالـح علـي اسـم الجـد، ليـرث مـن بعـده نفس الحلـم، ونفـس الرسـالة، "فاويـدُ إركـي أونّـا"، سـنعود إلـي بلادنـا.

مـرت ثلاثـون عامـاً علـي ذاك اليـوم، لـم يتغيـر شـيء، وذات نهـار مُشـرق، جلـس "تـاج الديـن" أمـام شـط حابـي، ينظـر إلـي منزلـه النوبي البسـيط الـذي يحكـي قصـة عشـيرته، قبـاب وزخـارف وزينـة ونقـوش لـكل العصـور، بـين الفينـة والأخـرى ينظـر لأبنـه "صالـح" الـذي تفـرغ للعـب واللهـو بـين البيـوت، يرجـو الأيـام أن تسـير سـريعاً ليشـب رجـلاً ويُحفظـه رسـالة الجـدود، اقتحـم أحلامـه كابـوس مزعـج، فقـد أمـر الوالـي بتعليـة السـد، وغرقـت الشـوارع والبيـوت، وحـان وقـت مغـادرة الديـار، فتحـرك الركـب بنفـس المركـب التـي يبـدو أنهـا لا تشـبع، تُصـر دائمـا علـي حمـل المزيـد، تذكـر "تـاج الديـن" وصيـة أبيـه، فنـادي علـي أبنـه صائحـاً، صالـح حـان وقـت الرسـالة، ثـم أشـار إلـي النوبـة مـردداً:

"نوبة أركوني قُوريرا .. مسرنا دورو .. أسّى أوينقون دورو .. فاويدُ إركي أونّا".

مات الجد ومات "تاج الدين"، وتركا صالح في الأربعين، لم يبتعد عن بلاد النوبة كثيراً عاش وتزوج بالقرب منه، وجاءه "جمال" حفيد الحفيد، ظن أنه لن يعيش مأساة أجداده، ولكنه ظن من البعض الأثيم، في يوم كيوم الجد والأب، رسا علي الشط نفس المركب، ترجو المزيد من الراحلين عن أرض النوبة، وقف صالح علي باب منزله مرتعد الأوصال دامع العين، هل كُتب عليه كما كُتب علي الذين من قبله، أن يعيش في أرض غير أرضه، أن لا ينفذ وصية أبيه وجده، وكأنه مشهد أصر مخرجه أن يعيده، كلاكيت ثالث مرة، فنادي ابنه جمال حان وقت الرسالة، ثم أشار إلي النوبة مردداً: "نوبة أركوني قُوريرا .. مسرنا دورو .. أسّى أوينقون دورو .. فاويدُ إركي أونّا".

"مرت خمسون عاماً يا بني.. بين الحين والحين أجلس علي نفس الشط، ألقي شعري لرفات "تاج الدين" و"صالح" .. أشكو لهم ضعف قوتي، وقلة حيلتي.. لم أنجب ولدا ألقنه الرسالة".. هكذا أعادني الشاعر الأسمر إلي رشدي، كأن سنوات مرت أمام عقلي، بكت عيني وسال الدمع أنهارا، فماذا عساه أن يفعل برسالة أجداده، وماذا سيقول لأجداده حين يلقاهم.

أرخي جمال رأسه علي الصخرة، أسبل جفنيه، وراح يردد بصوت شجن، "نوبة نابِن إركي".. نوبة يا بلاد الذهب، "أُوندين مَس سُودا مِننُ".. كانت أيامك جميلة، "مَشكِر أَسّرِن شايقا سُولوق أمن قارّا".. اشتقت لشاي العصاري بالحليب علي شطك، ""مَشكِر أسّربن بَتّرَ نوقين فاكِّلاَ".. اشتقت للعب الأطفال بين البيوت، "مَشكِر أونَتل قاقجو أشرى قا".. اشتقت للونسة الطيبة علي ضوء القمر، "شوبِن قور ندى قا".. لأفراح زمان، "مَشكِر ديون كبكا- ديدين قاتيجا".. اشتاق لخبز ورائحة القدور، "فاويدُ إركي أونّا".. سنعود إلي بلادنا.

سكت جمال، فتح عينيه للمرة الأخيرة، نظر إلي حابي مودعاً، أخرج أخر نفس من صدره، صعدت روحه تحمل رسالة الأجداد والإباء، لم يخلف ولداً يستأمنه عليها، لكنه كان يعلم أن كل أبناء النوبة يحملون نفس الرسالة، هو قال ذلك قبل أن يموت، "أوقون أسّى أوينقوق أق وسيجور".. وصيتي لأحفادي، "نُوبيقُو أورون كيلن كوركدي ين".. النوبيين رجال الجنوب وحراسة، "فاويدُ إركي أونّا".. سيعودون إلي بلادهم.

●●●

ختامًا

للحقيقة يجب أن أقول، إنني لم أكن لأكتب قصة الأجيال تلك لولا مساعدة الأديب والشاعر النوبي محيى الدين صالح، مستشار التراث النوبي بمركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي بمكتبة الإسكندرية، ولد في مدينة قُسطل عام ١٩٥١، وقد استلهمت قصة "تاج الدين" من قصيدته "قصة الهجرة" التي دونها في ديوانه الخامس "نُودِيتُ مِنْ وادِي النّخِيل"، بل واستعنت ببعض أبياته.

●●●

أنت الذي خلقت في السماء نيلا لكي ينزل عليهم ولهم